مجلة (لغة – كلام) تصدر عن مخبر اللغة والتواصل- جامعة غليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
رقم الإيداع: 2015 - 3412
مصنفة ج : قرار 1432 بتاريخ 2019/08/13
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 07/ العدد: 02 مارس (2021) - ص 192- 201

التفكيك وحفريات النصّ: تأمّلات نظرية حول الكتابة وفلسفة النص عند جاك دريدا

Deconstruction and Genealogie of the text :Theoretical Reflections on Jacques Derrida's Writing and Text Philosophy

محمد بكاي
mohammedbekkaye86@gmail.com
المركز الجامعي بمغنية/الجزائر

تاريخ الاستلام: 2020/06/30 تاريخ القبول: 2020/08/07 تاريخ النشر: 2021/03/15

ملخص البحث

يهدف البحث إلى الكشف عن استراتيجية التفكيك في قراءة النص الأدبي من خلال فتح طياته وإعادة بناء معناه المتناثر داخل الشبكات النصية. سنكشف كيف يهدّد التفكيك وحدة النص وقواعده الموضوعية؛ فهو يتجاوزها بامتياز ويخترقها في الصميم، أي أننا سنبحث عن التعدد الذي يجعل الوحدة تتوارى ويفتح الباب أمام منطق اللعب الحر داخل النصوص.

الكلمات المفتاحية: التفكيك، النص الأدبي، التأويل، القراءة، جاك دريدا.

ABSTRACT:

The present research work aims to unveil the deconstruction strategy in reading the literary text by opening its folds and rebuilding its scattered meanings within textual networks. We will explore how deconstruction threatens the unity of the text and its substantive rules; It exceeds its par excellence and penetrates it at the core, that is, we will search for the multiplicity that makes unity disappear and opens the door to the logic of free play within the texts.

Keywords: Deconstruction, Literary Text, Interpretation, Reading, Jacques Derrida

1.مُقدّمة:

يُعدّ التنظير الفلسفيّ المهمّ الذي سطّرته أعمال الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا (Jacques Derrida) حول النص والتشتيت والفضاء الأدبي والتّخييل وشعرية الكتابة لحظات بارزة في مشهد فلسفة الأدب في فترة ما بعد الحداثة. تحاول صفحات هذا المقال الاقتراب من فكرة أسئلة الأدب وتفجير حدود نصوصه، وهو ما تختبره آثار دريدا النقدية البارزة في السبعينيات مثل التّشتيت (La dissémination) أو نواقيس (Glas)؛ حيث دفع بسؤال الكتابة الأدبية نحو تجارب استبطانية غامضة. بعبارة أخرى، نسعى عبر هذا المقال للحفر داخل الاشتغال الجوّاني (L'intériorité) للتفكيك، أي صوب طيّات النّص وصفائحه الباطنية وهو ما يُشكّل حدث القراءة ومنطق المعنى المضمر الذي يتوارى خلف جمالية النص ورونقه الأسلوبيّ. ولكن لماذا اختار دريدا مقاربة التفكيك في زحزحة مراكز النص بحْثا عن شعرية الكتابة؟ لماذا اعتبر النّص الأدبي فسحة للتعدّد ولانهائية الدّلالة؟ لماذا أزاح دريدا الميراث الهوسرلي[1] في درايته بمقاصد الكلام وخطاباته عبر التحقيق في ظاهرة الصّوت، وكيف مرّن بذكاء حادّ ومكر منهجيّ مقولات التحليل النفسي مع س.فرويد (S.Freud) أو أنطولوجيا هيدجر (M.Heidegger) للتدخل في استراتيجيات النص ومبهماته وكلّ ما يقع خارج مراكزه اللّغوية المحدّدة؟ يروم هذا البحث التّحقيق في حدث القراءة من زاوية أخرى مختلفة عن نظيراتها البنيوية أو الصّورية التي اكتفت بالحدود الدّاخلية التي تحافظ على نسقية الصّوت، تراهن هذه الدراسة على انفتاح النص وحيويته وعلى إزاحة مراكزه وتفكيكها.

سنعالج أهمية الأنطولوجيا وتأثيرها على الرؤية الدريدية للنص، وعبر فحص فكرة الإرجاء التي ابتكرها دريدا نهاية الستينيات متأثرا بإرث موريس بلانشو الأدبي والنقدي. كما أننا نعرج على فكرة التفكيك النصي وآفاق المعنى لنختتم البحث بمجموعة من النتائج المتوصل إليها. وقد وظّفنا المنهج الوصفي التحليلي لبلوغ أهدافنا.

2.أنطولوجيا النّص ومشاهد التفكيك:

نشأ التفكيك في فرنسا مع أواخر الستينيات، بعد مجدٍ طويل للحركتين البنيوية والوجودية، مرتبطاً باسم الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا الذي وُلد في الجزائر سنة 1930. حيث انطلق من قراءة جذرية للنصوص معتمداً على حزمة من الاستراتيجيات النصية والحيل البلاغية. فالتفكيك الذي يصعب أن نجد له تحديدا مكيناً كعلم أو منهج؛ يظلّ مجرّد قراءة جديدة للتقاليد الغربية العريقة مع أفلاطون وسقراط مرورا بالحركات الفلسفية واللسانية من روسو وصولا إلى هوسرل وسوسير. وهذه الطريقة المختلفة للقراءة تشير إلى استراتيجيات مختلفة لتفسير النصوص الأدبية وتأويلها ووسيلة شرسة لفضح الخطابات السياسية والمؤسّساتية التي تعوّل على الشّكل والسّطحيات وتحجب خلفها معان مبطّنة تثري فهمنا للعالم.

في الحقيقة يُمثّل التفكيك سليلا لفكر هيدجر؛ حين ناقش فكرة التقويض أو التدمير الميتافيزيقي، لكن دريدا سجّل بعض الاختلافات عنه، فبينما رسم هيدجر هدفا مُحدّداً للوصول إليه انطلاقا من تجارب بدئية وطرق أولية ليتم التقويض بصورة مستمرة، لا يشيد التفكيك لنفسه مسارا ولا نقطة نهاية محدّدة، فعالج الأمور بطريقة لا-نظامية، مشوّشة، مبعثرة فيّاضة بالاختلالات ولهذا يبقى السبيل للوصول إلى معنى ثابت أمرا مستحيلَ الحدوث. يتحرّر التفكيك بذلك من أية علاقات تبعية مراهناً على فعل الإزاحة وضليعا بلعبة الإيهامات والباروك (Baroque)، كما قال بلانشو: "لم يعد يمتلك فيه أي اسم معنى يخصّه، ولكن ليس له من مركز سوى إمكانية الانحراف عن المركز، والاندحار، والانثناء، ونفي الذّات أو تكريرها: التّلاشي في أحسن الأحوال"[2]. ولهذا يمثل التفكيك ثورة تتحامل على الضبط النظري والنزعة العلمية داخل التصورات الفكرية والبحث باستمرار عن البناء الغامض الذي يتوارى خلف الجذور العقلية.

ومن مواطن اختلاف القراءة التّفكيكية للنصّ عن غيرها من المقاربات التنظيمية والنسقية التي كثّفت جهودها حول هياكل النصوص ونسيج الخطابات، اعتمادُها على منطق اللعبة والإزاحة والتغيير المستمر كما قلنا، محاولة منها الإمساك بأطياف المعنى وأشباهه، لأن التّفكيك يعوّل على الكثرة ولا يعوّل على الوحدة؛ أي انتقال نصياته من أحادية المعنى إلى تعدّديته ولانهائيته، "فلو كان بوسع الكتاب أن يبدأ حقّا لأول مرة، لكان انتهى إلى الأبد منذ زمن"[3] كما قال موريس بلانشو. تدمير المعنى هو تفكيك عقلاني ومعقول لأنماط الخطاب وأنظمة الرّؤية قصد مراقبة بنيتها وفحص وظيفتها والتفكير جدّيا في بدائل لا تقصيها بالضرورة وإنما تحتويها وترتقي بها إلى نوع من المراجعة والنقد الذاتي[4].

فبينما توقّفت البنيويات عند سطوح النّص الثابتة وشبكاته الظّاهرة لتعد بإخراج المعنى من أبراجه الخطية وتكلّله بلغة شارحة، أملاً منها في كشف مقاصد النص طبعا بصياغات موضوعية، تأتي رؤية الاختلاف عند أهل التفكيك نابعةً من معطيات فانتازية أو مقاربات مخيالية لا تحصر اهتمامها في رسم مقصدية مطابقة لحدود راسخة، فالبصيرة التفكيكية تُعيد ابتكار مفاهيم نقدية ذات غايات تجاوزية وانزياحية للولوج إلى عوالم التأويل. "التفكيك هو إستراتيجية دون هدف، تحدّد مستقبلا معنى أو محتوى تصوّري أو مفاهيمي لما سبق له أن كُتب"[5]. هنا يعلن دريدا عن لانيته في الفعل (انتفاء القصدية بمفهومها المتعالي والشفّاف)، لكن ما يفعله كذلك، هو تنظير وتطبيق عامَّين على التفكيك، والكشف عن إستراتيجيته البهلوانية المرحة والباروكية في كشف المحجوب والغور في الأطلال. لكن كيف يقدم على ذلك دون تأكيد لدور الميتافيزيقا في بناء نسق ينخرط فيه؟ لتجنب أي غرض أو هدف أو حتمية، يستظلّ التفكيك تحت كنف اقتصاد مقيّد بما هو تأجيل أو إرجاء. قراءة

معلَّقة بين الحضور والغياب، حول ما تمّت كتابته (في الماضي) لكن دون رقابة معلنة أو نسق بانوبتيكي، دون اختزال النص إلى محتواه، أيْ ترك القارئ يتوقّع التالي ويترقّبه.

فمواجهة النّص هي مواجهة أنطولوجية قلقة: عندما تكون رغبة الفهم أمام رهبة الوجود، تكون القراءة انفتاحا على عالم النّص، وهذا الأخير عبارة عن كون لغوي ومجازي فسيح، أين يجد القارئ نفسه أمام لعبة الظّلال، في مواجهة للأبديّة الحالكة (لامحدودية الفهم). بعبارة أخرى، "مشهد العتمة" أثناء القراءة هو بداية لقاء نصيّ نقيّ أو لحظة اتصال مثالية، حيث نجد النص الآخر في انتظارنا ملقى عند الحافة على استعداد أبديّ لوهبنا المعنى. هكذا تكون القراءة النقدية ذات بدايات بريئة ونقية إلى أن تتحوّل لهزّات وانفعالات وخشوع مزلزل أمام دهشة الكشف ونشوة اللغة وهوام المشهد: عندما يلج التّفكيك أساليب التّفكير الخالص والحوار الذي لا ينقطع وصله، في تبادل مستحيل وممكن الحدث والحدوث بين النّص ومؤوّله. وهذا ما يجعل شريعة التفكيك صعبة المراس.

إنّ مواصلة القراءة تجعل من المشهدية النّصية ملوثّة ملطّخة، باهتة بعيدة عن التجليات الواضحة، إذْ لا تكتفي باللّغة التواصلية العادية، فرهانها يكون على البُعد المهمّش للصّوت، وهو "الحرف"، أي على مستوى الكتابة التي تمارس حسب دريدا مشروطية الصّوت ووجوده الجسدي، فهي "كتابة مشتّتة، كتابة بدون لحظة ذاتية متعالية، كتابة ذات وحدات متغايرة متنافرة تحقق نقطة تركيزها الداخلية في مواجهة نقطة تركيزها الخارجية التي تتبناها الميتافيزيقا (مدلول متعالي، حقيقة مطلقة، تاريخ غائي...)"[6]. يواصل التفكيك التفكير بطريقة عكسية داخل دائرة لا تنتهي لكسر "الوعي" الذي يتشبّث به النّص، "وعي الحياة الحقيقية"، الإستراتيجية العامة للتفكيك هي مضاعفة: التدخل في عكس التسلسل الهرمي، وتعطيل النظام (خلخلته) من خلال اكتشاف الاختلافات والانحرافات[7].

تفكيكات دريدا هي بحث عن الوضعية الخفية أو الدّور التكتيكي الذي يمارسه ذلك المفهوم في الخفاء والهامش وفي المواقع المشبوهة. ولهذا جاء التفكيك كسراً لرتابة النمطية التصورية التي ترتب شؤون الفكر والتمثل وتخضعها حسب القوى والوظائف. وعليه، فالتفكيك عبارة عن قراءة دينامية تنقل تلك الرتابة إلى مرحلة جديدة تقلق الدّور الوهميّ الذي يلعبه المهيمن واليقيني الذي يقوم به المصوّت النّاطق عبر الكلام. ولهذا اهتمّ دريدا بفكرتي "الحضور والغياب"، وهو ما تطلّب أحيانا كثيرة الخروج من قلعة المتعارضات لابتكار معان جديدة بدل اجترار أفكار أثقلت كاهل الفلاسفة (فكرة الفارماكون على سبيل المثال). وصف ذلك أنه لن تقوم له قائمة إلاّ عن طريق الحلّ والفكّ، عبر تجليات تكرارية تؤجّل نهايتها كل مرّة.

3.الإرجاء التفكيكي: من بلانشو إلى دريدا.

تتحدّى مقاربة التفكيك في حبائكها الطّابع المؤسّساتي الذي يفضّل تقديم تعريفات موثوق بها، لها شبكة اصطلاحية راسخة أو إحالات دلالية واضحة وإطارات منهجية مضبوطة (الحياة، العقل، النص...). لكنّ موجة التفكيك مع جاك دريدا كسرت تلك النحويات معيدةً اكتشاف التفاعل بين اللّغة وبناء المعنى، عبر خلق علم جديد متمثّل في "الغراماتولوجيا" (La Grammatologie). وتفاديا للغموض الكبير الذي لفّ التفكيك منذ شيوع مقولاته، حاول دريدا تهيئة تفسيرٍ بسيط وواضحٍ للتفكيك مبكرا، يختصره في كلمات تحديدية، وهو ما ارتآه في إحدى مراسلاته مع صديقٍ ياباني، رسالة تحمل إمكانية شرح أساسي لِما يُفهم من التفكيك عادة وتقليصا للشتات المعنوي الذي يلفّه، بوضع تعريفات ملتزمة ومقتضبة كتابيا وفاء منه لمبدأ "لا شيء يتجاوز النّص". بعبارات أخرى يُمثل التفكيك تكتيكا يحدّ من غطرسة الصّوتي والمرئي ليلتقط المعارضة الموجودة داخله ويكشف أوجه التناقض التي يحملها والوجه السّري اللاّمعلن عنه في ظاهر الكلام، وهو ما أطلق عليه دريدا "الإرجاء".

الإرجاء التفكيكيّ (Différance) هو إمكانية مستحيلة للتشكيك المستمرّ في أُسُس المعنى وثوابته القارّة؛ فالتفكيك ممارسة على "شيئية النّص" أو استجواب دلاليّ ومجازيّ وباروكيّ للمتواري تحت طيّات السّطح ومراكزه.

مارست كتابة دريدا دائمًا ردًا وتلقيا مختلفين على الأنماط الفكرية العتيدة في الفن أو الفلسفة أو الثقافة الشّعبية للجماعات، وهو ما تطلّب حفرا تحليليا يليق بعمله المختلف والغريب. حيث تظل عمليات قراءة نصوصه تفكيكاً للتفكيك، حلاّ لشيء عويص غير مسمّى، اقترابا من منطقة محظورة ملغّمة، بين الأثر الضّائع والمسمّى المجرّد يقطن ذلك السمّ الدريدي، حيث يتحوّل أي خطأ في استعمال ذلك الترياق –في الوصف أو التسمية أو التفسير- إلى كارثة في الفهم ونهاية غير سعيدة للتأويل؛ "فالدخول في نصّ دريدا هو في الواقع مجازفة بالدخول إلى متاهة حيث المخرج هو مدخل لمداخل أخرى تفقد معه الخريطة والمفتاح والمصباح من معانيها طالما أصبح نصه متاهة حيث يصعب متابعة القصدية سوى بنوع من التجريد العسير والمستحيل"[8]. ستظلّ سياقات القراءة تتكرّر بشكل إرجائي كي لا تقع في فخ المطابقة، وهي الاستراتيجية التي تحرّك يديها في خفة وحذاقة بغية فكّ الشفرة في أسرع وقت قبل انسحاب الأثر أو الشبح (الصّورة المرجئة للمعنى) في هنيهات وخطفات، فالدّعوة للرد على دريدا تحتاج إلى مران تأويلي وغوص تحليلي في رحاب معجمه التفكيكي والاصطلاحي، وعي بسياسات فكره وإحاطة بمشاربه المعرفية المترامية الأطراف بين التيولوجيا والأنطولوجيا والتحليل النفسي واللّسانيات والأنتروبولوجيا والأديان والفنون التشكيلية، هذا ما يجعل معجمه غارقاً في توجّهات معرفية متشابكة، متصادِمة يصعب تلخيصها في مفاهيم مضبوطة

جامدة أو تخليصها من تشابكاتها الإشكالية (ما يسجّله مثلا التداخل الرّهيب بين اللّساني والفينومينولوجي أو الأنطولوجي والهيرمينوطيقي...). في هذا السّياق يُعدّ المُضيّ قدما صوب دلالات نصوصه نقدا على قدر كبير من الاجتهاد والتأني والدّقة التي تتحرّك بدينامية وخفّة أحياناً والتباس تعقيدي أحايين أخرى. لذلك أشدّد على القول إنّ "تفكيك التفكيك" هو طريقة إبداعية جديدة تستدعي فهماً للُعبة المجازات الدريدية، تشييدٌ رسميّ خاصّ، لا يخلو هيكله التخريبي الأخّاذ من فهم حقيقيّ لأسطوريات جاك دريدا وماورائياته النصية المذهلة.

يتّصل التفكيك -في مقاربته للأدب أو تعاطيه للسّؤال الفلسفي والأنطولوجي- بفكر موريس بلانشو ويستمدّ من خبرته المتوغّلة في البحث عن الذات والآخر والكتابة والشّذرات والمحايد والعدم طريقا صلبا ومتشعّبا، فأساليب التفكيك تمثّل إلى قدر كبير روحَ بلانشو وفكره وطبعه، وتتعلّم منه الكثير حول المعتم والصّبر والصّامت داخل الميتافيزيقا والحضور والظاهرة: "نحسّ، إن تلفظّنا الفاجعة، أنها ليست كلمة أو اسما، وأن لا وجود لاسم منفصل أساسا، سوى جملة مركّبة أو بسيطة، تسعى فيها لانهائية اللغة، بتاريخها غير المكتمل وبنسقها غير المغلق، إلى أن تتكفّل بها سيرورة من الأفعال، ولكن ضمن التوتر المستمر بين الاسم والفعل في الآن نفسه، وتسعى إلى البحث عن دهشتها خارج اللّغة، دون أن تكفّ مع ذلك عن الانتماء إليها"[9]. هذا التوغّل التفكيكي المسكون بروح بلانشو وهيدغر، يعيد الإلحاح الفينومينولوجي لبعض التّصوّرات الوجودية المنقبضة والحسّاسة بالنسبة للذّات، وتكون هذه الإعادة أو الرّد لمشهد التساؤل الفلسفي بطريقة مختلفة ومنفلتة عن قواعد الخطاب والعقل والحضور والوعي: "فالحضور الممتلئ للوعي هو جعل الحقيقة الخارجية بين قوسين وتعليق حكم الإشارة (époché) ولنفترض أن هذا الحضور الممتلئ للوعي في اللحظة الرّاهنة هو صوت داخلي أو نداء باطني أو صدى جوّاني فإنه لا يقول خارج ذاته أي شيء لأنه مستغرق في التمثل والتخيل"[10]، فالحديث عن قلق الموت لا يكون بمثل ذلك الخطاب المتناهي في السّلب أو العدم أو اللاّشيء كما يتسلّل من تراث هيجل وصولا إلى متون فرويد وتحليلاته النفسية، بل باعتباره مركّبا انعكاسيا للحياة، صورة مرآوية للحقيقة (Wahrheit)، وهو المنطق الارتداديّ الذي تتبعه الكتابة أيضا في تخييلاتها (Dichtung)، فالحداد والجنائزية هما قدرها، قدر الكتابة والكاتب معاً، هذا الأخير وهو يكابد المشقّة والرثاء في تتبّع صوت المنادى المبهم والأثير. فما يثير انتباه دريدا في تنظيراته المكثّفة للخيال والحقيقة داخل السير الذاتية، هو المزج والتقاطع المفاهيمي بين تلك المتضاربات، ما بإمكانه أن يحدث بينهما مستشهدا في ذلك بأشعار بول سيلان أو نصوص بلانشو وبول دو مان. لأنّ اللّغة تحمل بداخلها اللّحظة التي تضمرها، لحظة التوتر التي تخفي سرّا. من هناك تستمدّ القوّة لإخفاء نفسها. طاقة تدمّر كلّ وساطة لتحافظ على عفوية المحايد (Le neutre) ونضارة الأصل وبراءته. فلا تستسلم اللّغة الأدبية للمعتاد بل تنسحب بلطف وعنف معا صوب العزلة اللاّمتناهية التي يشعّ منها الفضاء الأدبي وتتجلّى فيها الكتابة للتطهير، حيث يتخلّى الكاتب عن نفسه فيما يشبه

لحظات تلاشي وتوحّد صوفيتين؛ فإما أن يموت أو يبدأ من جديد، أي يموت من أجل البدء مرة أخرى كما قال بلانشو.

ومن خلال تأمّلات دريدا التفكيكية الأولى عبر كتبه الهجينة بين التصورات الفلسفية والصّور الأدبية، مثل: الغراماتولوجيا والكتابة والاختلاف وصولا إلى هوامش الفلسفة ونواقيس والتشتيت والتي ظهرت تباعا في نهاية الستينيات وأواسط السبعينيات، عمل دريدا على انهيار التمايز القائم بين الفلسفة والأدب، مؤكدا أنه لا يوجد جوهر مستقل للفلسفة أو الأدب، أو أية استقلالية بينهما، فسكنهما واحد، أهوائيّ بامتياز، يعاين حالات النفس. وهذا المقترح الذي قدّمه يراهن على أَسئَلَة السّؤال وبثّ روح الفكّ والشّك في العلامات والقرائن، والمراهنة على الشبحي والمخيالي، وهو ضرب من الاختيار اللاّنهائي للقراءة التفكيكية التي لا تروم الأجوبة بقدر ما تبثّ وتبعث الأسئلة، بعبارة أخرى هي حركية اللاحركة التي ليس لها معنى إلا في لاشيئيتها بحثا عن اللاأثر وحضور اللاّحضور. فاللاشيء هو الحاصل كما قال بلانشو: أو اللاشيء ليس وجودا ولا عدما، "وتقتضي هذه الصّيغة فراغا مطلقا، يهيمن على كل الحقائق والأفكار، حيث يلتقي مع التّجربة الحدّ من جهة كونها تجربة مستكينة، أو تجربة قلّما يفكر فيها. ويعود تأكيده الصّارم على كلمة لاشيء إلى الفكر المثخن بالنفي المفرط الذي يستأثر به المستحيل"[11].

ينطوي الإرجاء أو الاختلاف المُرجئ على حقيقة مفادها أن المعنى غير ثابت كما لا تتوقّف رحلته عند نقطة جامدة وحاسمة، بل هو قيد التطوّر دائماً. إذ يُقحم التفكيك المفاهيمَ المتنافسة في تفاوض مستمر حول إنتاج المعنى بديلاً عن المتابعة الجوفاء للحقيقة الأحادية ذات الأصل الطبيعي. وتتصدّى الكتابة كنمط من الاختلافات المرجئة لأنظمة اللّوغوس وتمركزاتها الصّوتية، عبر منافسة لا يهدئ لها بال، أو هي نوع من الالتزام في أشكلة المعنى وإخضاع نسقه للسّؤال داخل المؤسّسة. يتوقّف الإرجاء عندما يبدو أن اللعبة المتناقضة التي تنتج الدوائية (الفارماكا) تصحّح نفسها بعبارات معاكسة[12]. إنتاج **الإرجاء** هو لعبة، ومثل أي لعبة فهو خاضع للقواعد. مثلا يتوقف الإرجاء عندما يتم تجميد المتعارضات، فالفارماكون يهدد النقاء الداخلي وينعش نشاط الرّجئية. وما يخوض فيه التفكيك هو تجاوز قيود اللغة التي تفرضها الرّموز والتمثلات على الفكر والتي تخلق صورة جامدة، فهو يبحث تحت جلدها عن الاختلاف المطلوب بعيدا عمّا يقصده المؤلف أو ما تنتجه القراءات البنائية في ابتكار معنى مهيمن على حساب معنى آخر. فيكون التفكيك استجوابا مريرا لنصية النص، اغتصابا لغويا، وقهرا لسلطته، وبالتالي لا يستبعد دريدا وجود معنى آخر ثاو وراء المعنى النهائي، وذلك ضمن دائرة يتعذّر تحديد بداية لها أو نهاية. فجاك دريدا لا يمجّد العلاقات الهرمية التي يهيمن فيها طرف على حساب طرف آخر تابع (المركز/الهامش)، الذي يظلّ يمارس غطرسته الرمزية كشرعية تعكس النظام الطبيعي الذي يجسّده العقل والوعي واللّغة، وهنا شرع التفكيك أبواب المعنى أمام

تأويلات متنافسة، كانت فيما مضى عبارة عن ملاحق أو هوامش في ظلّ ثقافة "المعنى الأحادي" السّائدة.

4.التفكيك النصي وآفاق المعنى:

قلبت ماكينة دريدا التفكيكية فكرة التسلسل الهرمي رأسا على عقب، وشتّتت التراتب الكائن بين الأكبر والأصغر أو الأقوى والأضعف والسّلب والإيجاب، ومختلف المتعارضات التي شدّدت عليها السرديات الشمولية. وهذه الزّعزعة التي قادها دريدا ضدّ التّصورات التأسيسية والثنائية الصّارمة، لم يكن مرامها إبادة الهياكل في حدّ ذاتها أو تحطيم هرميتها، بل إعادة تأسيسها عن طريق الفكّ وإعادة البناء أو تجليات تكرارية تؤجّل نهايتها في كلّ مرّة، من خلال فهم لا يخضع لنظام المتعارضات المغلق. ما أحدثه التفكيك من تغيير حقيقي هو التبادل المتواتر بين موقفي "التابع والمهيمن"، وهو ما سمح للمتضادّات أن تستمرّ حيواتها في انسجام جديد مختلف؛ فبين علامة "قف" STOP المرورية يتوارى فعل الدخول "Enter" الذي يظلّ كالقفا لصيقا بالوجه، فمع كلّ فعلِ تَوقّف يتجلّى فعل للدّخول والاستمرارية.

كما جاء التفكيك كسراً لرتابة النمطية التصورية التي ترتب شؤون الفكر والتمثل وتخضعها حسب القوى والوظائف، التفكيك عبارة عن قراءة دينامية تنقل تلك الرتابة إلى مرحلة جديدة تقلق الدّور الوهميّ الذي يلعبه المهيمن واليقيني الذي يقوم به المرئيّ. ولهذا اهتمّ دريدا كثيراً بفكرتي الحضور والغياب ورمزية الأطياف، وهو ما تطلّب أحيانا كثيرة الخروج من قلعة المتعارضات لابتكار معاني جديدة بدل اجترار أفكار أثقلت كاهل الفلاسفة. وبالتالي، يفرّ التّفكيك من متعة اكتشاف الحقيقة أو استخلاص الاستنتاجات الصّحيحة، التفكيك وثب وتحليق دائمين، فهو لا يمثل منهجاً أو طريقة ولا يمكن تحويله إلى واحد، هو كثرة وذلك هو قدره. لذلك يستحيل تبنّي التفكيك كمنهج تحليلي لدعم الحجج أو طريقة لاستجواب بنية المعنى، فكما جاء في "رسالة إلى صديق ياباني": التفكيك ليس تحليلا ولا نقدا، لا يُقيّد برنامجه بالبحث عن عنصر بسيط أو أصل غير قابل للذّوبان أو بداية نقية، فهو يتّصل دوما بخطابات الترميم وإعادة الإعمار، لأنه لا يستبعد بنية على حساب أخرى من خلال التفاضل أو أداء الوظيفة، بل يبحث في منطقها الدّاخلي عن المخبوء والمكنون، ليفهم بشكل أفضل نصية النصوص. هنا رُمي التفكيك بالعقم في معاينته للمسائل العملية التطبيقية المتصلة بالعدالة أو الأخلاقيات، لأنّ عدم وضوح دريدا جعله يسبح في فوضى الفوضى. في الحقيقة، يحمل التفكيك رؤية جديدة لمعالم النّص وعوالم المعنى من أجل إعادة تشكيل فهمٍ جديد ومختلف ولزج للمفاهيم الأساس في العالم، وما يمكننا قوله عنه إنه ذو طبيعة داخلية تحتية وسرية. لذلك نكرّر مع دريدا أنه "لا يوجد ما هو خارج النّص"، وهذه المقولة تحمل من الدّلالة ما يُوحي بإرجاءات تعشّش داخل التسلسلات الهيكلية التي تمارس لعبها في الخفاء، فما يهتمّ به فيلسوف

التّفكيك هو فهم الأفكار بالأساس وليس مشاريع تطبيقها. بعبارات أخرى، لا يهدف التفكيك إلى تقديم إجابات شافية أو حقائق ثابتة، فهو يظلّ حدثاً (Evénement) غير محدّد ومستحيل الحدوث (Avènement)؛ لأن حدوثه لن يصل إلى نتيجة حاسمة، فتظل التحقيقات مفتوحة النهايات والعقول دوما في غمرة البحث عن مواقع بديلة.

5.خاتمة:

في ختام هذه الدراسة نصل إلى مجموعة من النتائج أبرزها:

يصارع التفكيك كلّ نزعة ميالة للضبط النظري والنزعة العلمية أثناء تأويل النصوص، وهو حفر مستمر عن البناء الغامض الذي يتوارى خلف التمركزات اللغوية والعقلية.

يعتمد التفكيك على استراتيجية اللّعبة ومنطق الإزاحة والتغيير المستمرّ، محاولة منه للإمساك بأطياف المعنى وأشباهه، فهو يستثمر تحليلاته انطلاقا من الكثرة والتعدّد ولا يعوّل على الوحدة والانسجام.

الإستراتيجية العامة للتفكيك هي مضاعفة: التدخل عكس التسلسل الهرمي، وتعطيل النظام (خلخلته) من خلال اكتشاف الاختلافات والانحرافات.

ينطوي الإرجاء أو الاختلاف المُرجأ على حقيقة مفادها أن المعنى غير ثابت كما لا تتوقّف رحلته عند نقطة جامدة وحاسمة، بل هو قيد التطوّر دائماً.

تنبع رؤية الاختلاف عند أهل التفكيك من معطيات فانتازية أو مقاربات مخيالية لا تحصر اهتمامها في رسم مقصدية مطابقة لحدود راسخة كما ذهبت البنيوية أو الفينومينولوجيا، بدل ذلك تُعيد ابتكار مفاهيم نقدية ذات غايات تجاوزية وانزياحية.

"تفكيك التفكيك" هو طريقة إبداعية جديدة تستدعي فهماً للُعبة المجازات الدريدية، تشييدٌ رسميّ خاصّ، لا يخلو هيكله التخريبي الأخّاذ من فهم حقيقيّ لأسطوريات جاك دريدا وماورائياته النصية المذهلة.

عمل دريدا على انهيار التمايز القائم بين الفلسفة والأدب، مؤكدا أنه لا يوجد جوهر مستقل للفلسفة أو الأدب، أو أية استقلالية بينهما. كما أنّ أساليب التفكيك تمثّل إلى قدر كبير روحَ موريس بلانشو وفكره وطبعه، وتتعلّم منه الكثير حول المعتم والصّبر والصَّامت داخل الميتافيزيقا والحضور والظاهرة.

لا يشيد التفكيك لنفسه مسارا ولا نقطة نهاية محدّدة، فعالج الأمور بطريقة لا-نظامية، مشوّشة، مبعثرة فيّاضة بالاختلالات ولهذا يبقى السبيل للوصول إلى معنى ثابت أمرا مستحيلَ الحدوث.

6.الهوامش:

[1]- نسبة إلى الفيلسوف إدموند هوسرل الذي قدّم أعمالا جليلة ومؤسِّسة للفينومينولوجيا أو إدراك العالم والأشياء.

[2]- موريس بلانشو، كتابة الفاجعة، ترجمة: عز الدين الشنتوف، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2018، ص: 121.

[3]- المرجع نفسه، ص: 73.

[4]- محمد شوقي الزين، الذات والآخر: تأملات معاصرة في العقل والسياسة والواقع، منشورات ضفاف، بيروت، ودار الأمان، الرباط، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2012، ص: 137.

[5] - Jacques Derrida - "*La Dissémination*", Ed : Seuil, 1972, p13

[6]- محمد شوقي الزين، تأويلات وتفكيكات: فصول في الفكر الغربي المعاصر، منشورات ضفاف، بيروت، ودار الأمان، الرباط، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2015، ص: 207

[7] - Jacques Derrida - "*Positions*", Ed : Minuit, 1972, pp56-58

[8]- محمد شوقي الزين، الإزاحة والاحتمال: صفائح نقدية في الفلسفة الغربية، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص: 155.

[9]- موريس بلانشو، كتابة الفاجعة، ص: 107.

[10]- محمد شوقي الزين، تأويلات وتفكيكات، ص: 205

[11]- عز الدين الشنتوف، من تقديم ترجمته لكتاب م.بلانشو، كتابة الفاجعة، ص: 22.23

[12] - Jacques Derrida - "*La Dissémination*", p : 159.